6

مطلوب: أم
الوصف الوظيفي

اشتركت تقريباً كل أم تحدثت إليها بنقطة القلق نفسها وهي خوفها وقلقها من عدم كونها أماً جيدة. إن الطلاق الذي كان مناسبًا لها لم يكن جيدًا لأطفالها. أو أن متطلبات الصغار قد غمرتها لدرجة أنها كانت تفقد أعصابها وتخيف الصغار بغضبها. إن الساعات الطويلة التي أمضتها في العمل تعني أنها لم تكن في المنزل في الوقت الذي يحتاجون إليها. ولأنها ندمت على ترك العمل في سبيل البقاء في المنزل مع الأطفال، فإنها قد شجعت ابنتها لأن تسعى خلف بناء مستقبلها المهني. لكنها الآن ترى ابنتها تواجه الصعوبات في تربية أطفالها وإدارة المنزل ورعاية زوجها والعمل في وقت واحد. وتخشى من أنها قد أسدت لابنتها النصيحة الخاطئة. ولأن تقدير النساء لأنفسهن يعتمد بقدر كبير على تقدير العالم لنجاحهن أو فشلهن كأمهات. تعيش كثير من النساء حياة منغصة بسبب هذا الشك: «هل قمت بدوري كأم؟» هذه الشكوك لا تسكن أبدًا، لأن هذا العمل يتضمن رقمًا غير محدد من الأعمال والتوقعات والمتطلبات. ولا يمكن إنجاز كل هذا بطريقة ترضي الجميع، حيث إن كل ما تفعل أو تقول الأم من الممكن أن يحسب ضدها.

من الذي يمكنه أن يستجيب لطلب وظيفة «كأم» لو كان وصف الوظيفة دقيقاً وكاملاً؟ لنفكر في الأعمال التي يمكن أن تكون في إعلان وظيفة بعنوان «مطلوب أم».

مركز الاتصالات

كنت أتحدث إلى والدتي على الهاتف، وبعد مكالمة طويلة قلت لها إنني أود الحديث مع والدي. قالت والدتي وابتسامة في صوتها: «لو كنت فتاة جيدة». وبالطبع كانت تمزح وقامت بتمرير الهاتف إلى والدي. لكن صدى تعليقها الساخر ارتد بقوة من حياتي كطفلة. كانت أمي كما لو أنها موظفة اتصالات بلوحة مفاتيح توجه الاتصال وتختار مَنْ يتحدث إلى مَنْ.

كثير من الأمهات تأخذ دور «المختص بالاتصالات العائلية». وغالبًا ما تبدأ هذه الوظيفة بدور الوسيط بين الأبناء وأبيهم. تسأل إحدى البنات أمها: «ما رأي والدي في انفصالي عن بول؟» فتجيب الأم: «إن والدك سعيد أنك في البيت معنا الآن». والأمهات عادة ما ينقلن آراء ومشاعر الآباء للبنات والأبناء أيضا.

هنا مثال لافت للنظر من خلال مقابلتي بجون ريتشارد الذي كتب كتابًا عن حياة والده كجاسوس في مخابرات السي آي آيه. وفسر كيف أن والده كشف تدريجيًا عن ماضيه. قال ريتشارد: «عندما فتحت موضوع كتابة كتاب مع والدي في البداية غضب كثيراً، لكنه لم يظهر هذا ولم يخبرني بل أخبرتني أمي لاحقا بأنه غضب لأيام عديدة». إن لعب دور الوسيط غالبًا يستلزم توزيع المعلومات. وبمقارنة عدد الساعات التي تقضيها النساء في الحديث عن العلاقات فإن الرجال مبتدئين نسبيًا في هذا المجال. وربما كان هذا هو سبب تخلي الرجال عن قسم الاتصالات لزوجاتهم.

إن الأغلبية العظمى من تلاميذي والذين مازال آباؤهم يعيشون معًا يقولون: إنهم عندما يتصلون بالمنزل فإنهم على الغالب يتحدثون لأمهاتهم، وأحياناً لا يتحدثون لآبائهم نهائيًا. وغالبًا ما تكون هذه الحوارات قصيرة تدور حول العمل. مثلاً كتبت أليسون كيليهير: «عندما أتحدث إلى أمي في الليل فإن والدي يأخذ السماعة لخمس دقائق ويتحدث عن شيء حصل في البنك أو عن مشكلة في جهاز الحاسب، وينهي المكالمة قائلاً: «أتمنى أن تسير كل أمورك بشكل جيد، أنا أحبك». والشيء نفسه كان بالنسبة لي. فطيلة مرحلة حياتي البالغة كنت أتصل بمنزلي أسبوعيًا، وبمرور الوقت أدركت أنني بالرغم من أني كنت أعتقد أني أتصل بوالدي، كنت في الحقيقة أكلم أمي فقط. وإذا صادفت أن رد أبي على الهاتف فإنه يقول على الفور: «انتظري.. سأنادي أمك، ستكون سعيدة جدًا لسماع صوتك». وأسمعه ينادي: «دوررررثي... ارفعي سماعة الهاتف!» في البداية كان والدي يتكلم من إحدى سماعات الهاتف وأمي تتكلم من السماعة الأخرى، لكن بعد مدة ليست بالطويلة لاحظت بأن سماعته صامتة وأدركت أنه اختفى، تاركًا الحوار لي ولأمي. لطالما جعلني هذا أشعر بخيبة الأمل، وعندما أدركت أنه لم يعد موجوداً على سماعة الهاتف شعرت بأنه هجرني. وفي يوم صدف أني اتصلت ولم تكن أمي موجودة بالبيت، وقد دهشت أن والدي كان متحمساً للحديث معي طويلاً على الهاتف. كنت أعتقد في الماضي أنه غير مرتاح للمكالمات الطويلة، لكنه في الحقيقة كان يحاول التكييف مع ما تعتبره زوجته حقاً لها في هذا الميدان. وبعد ذلك تعمدت الاتصال من وقت لآخر عند تأكدي من وجود والدي وحيداً في المنزل.

تأخذ الأمهات دور الوسيط في كثير من العائلات، تقوم بترجمة الردود والتعبير بين الأب والأبناء. من الممكن لهذا الدور أن ينجح في حالات كثيرة

لكن أحياناً يصبح دور الوسيط كدور الدخيل. فمن خلال واجب كان يقوم به تلاميذي قامت تلميذه تدعى فارينا ويندير بمقارنة رسائل تلقتها من والديها. ومن خلال تحليلها لهذه الرسائل كتبت فارينا: «أنا وأمي نتحدث على الهاتف كثيراً، لكن إلى هذه اللحظة لم نتحدث أنا وأبي على الهاتف أبداً». وقد ظهرت عدم سعادة أبيها عن هذا الوضع في رسالته التي قال فيها: «أحصل على نسخة من أخبار حياتك عن طريق أمك. وكنت أفضل أن أسمع هذا بنفسي منك». وكما اكتشفت أنا مع والدي، ففتح خط الاتصال مع الأب يتطلب جهداً وسعياً، لكن الاتصال بين الأم وابنتها غالبًا ما ينشأ بدون تحضير، لأن ميدان الاتصال هو من ملكيات الأم.

مديرة قسم العلاقات العامة

لا يخضع الاتصال الداخلي فقط تحت سيطرة الأم، بل الاتصال الخارجي أيضاً. ما المعلومات التي تخرج للعالم عن العائلة؟ وكيفية تقديم هذه المعلومات. وجزء من وصف وظيفة الأم أن على المتقدمة أن تكون مديرة علاقات عامة جيدة.

سجلت دينا هال وكريستين لانجيلير حوارات مع خمسة أزواج من البنات وأمهاتهن. وطلبت منهن ذكر قصص عن أوقات تناول الطعام في عائلاتهن. ومن بين ما نقلن هو سعادة واحدة من البنات في نقل صورة سيئة عن عائلتها لا تضعهم في وضع جيد. وبينما حاولت الأم إيقافها بلا جدوى كانت البنت تقول لأمها: كيف أنها كانت تصف عشاءً طبيعياً في منزل العائلة عندما كانت صغيرة فقالت: «كنت أخبر دينا كيف أننا كنا نبدأ عشاءنا ثم تقولين: «لا أستطيع أن أجلس هنا وآكل، ثم تذهبين

إلى غرفتك». وبدون أن تنتظر أن تنهي ابنتها الجملة تقاطعها وتقول: «لا تخبريهم عن هذا، هذا لم يحدث دائماً». أكملت البنت حديثها بدون أن يثنيها شيء: «ثم يقول توم أنا لا أستطيع أن آكل فبطني يؤلمني. ثم يذهب لغرفته ويقفل الباب». وبما أن السر قد خرج الآن فإن الأم تحاول تحسين الطابع السلبي الذي من الممكن أن يظهر في المقابلة فقالت: «حدث هذا فقط في حالات قليلة. إننا نخبرك عن أسوأ الحالات التي تعرضنا لها. إننا بالفعل ليس علينا الحديث عن هذه القصص».

وكمديرة لقسم العلاقات العامة، فقد حاولت هذه الأم أن تدير الطابع الذي كانت تتركه عائلتها على العالم الخارجي، أولاً: عن طريق منع تسرب المعلومات للخارج، ومن ثم عن طريق إعادة تشكيلها وكيفية تقديمها. وعندما يصبح هذا من المستحيل فإن الأم ربما تحاول التحكم بوقت التصريح بهذه المعلومات للعامة.

منذ ثلاثين سنة انفصلت أنا وأختي عن أزواجنا تقريبا في الوقت نفسه، وبعد هذا بمدة قصيرة أخبرتنا أختي الثالثة أن زواجها أيضًا كان على وشك الانتهاء. وقد توسلت لها أمي أن تبقي هذه الأخبار سرًا فقالت: «لقد أخبرت للتو كل من أعرف عن طلاق أخواتك. من المستحيل أن أستطيع أن أخبرهم عنك أيضًا بهذه السرعة». إن والدي اللذين ولدا في أوروبا شعرا بالمسؤولية تجاه طلاق البنات. أستطيع أن أتخيل الصدمة التي عاشوها بسبب تحول البنات الثلاث من متزوجات إلى مطلقات في مدة بسيطة. لكني لم أفكر بهذا في تلك المرحلة كنت منزعجة من تركيز أمي و اهتمامها بنقل خبر الطلاق للآخرين بدلاً من اهتمامها بشعور أخواتي.

تغضب كثير من النساء من اهتمام أمهاتهن بطريقة ظهورهن أمام الناس. إننا نود أن نظهر كأفراد مستقلين وليس كمندوبات عن أمهاتنا. لكن كيف للأم أن لا تقلق وهي تعلم أن ما يدور في حياة ابنتها هو أساس للحكم عليها.

وفي القصيدة «لآن جريجوري» فإن «بيتس» كتبت: «فقط الله عز وجل يحبك لما أنت عليه وليس لشعرك الأشقر». وهنا الشعر الأشقر يحتل مكانًا أي: مظهرًا يحكم علينا العالم من خلاله. ومن الممكن أن نتبني مجرى التفكير هذا ليعكس استحالة تلبية متطلبات البنات، وتجاهل الانطباع الذي تتركه البنات على العالم. لأن «فقط الله عز وجل يحبك لما أنت عليه وليس كما يظهر أبناؤك». لهذا تحاول كثير من الأمهات إدارة كيفية ظهور أبنائهن أمام الأصدقاء والعائلة والخليط غير المنظم من الجيران.

في المسرحية الغنائية «تحت حليب الخشب». صور ديلان توماس كيفية تشابك حياة الأفراد في مدينة صغيرة في ويلز. ومن الأشياء التي لازمت وتكررت طيلة عرض المسرحية هو صوت امرأة يكرر العبارة الآتية: «ماذا سيقول الجيران كلهم، ماذا سيقول الجيران كلهم» وتوماس لا ينهي هذه الجملة بعلامة استفهام لأنها في الحقيقة ليست سؤالا على الإطلاق. والإجابة هنا ضمنية، فليس هناك حاجة للتأمل لأن الجيران سيتكلمون على أية حال وهذا يعني أنهم لن يرضون أبداً.

إن ثرثرة الجيران تلعب دورًا في الثقافة البورتوركية كما بينت إيسميرالدا سانتيجو التي انتقلت هي وعائلتها من موطنهم الأصلي بورتوريكو إلى مدينة نيويورك في سن الثالثة عشرة. كتبت تقول: إنها

عندمـا كانت مراهقة كانـت محاطة بالمعايـير الاجتماعية التي فرضـتها أمها، وقد أصرت أمها وباستمرار على القول بأن ابنتها عليها أن تكون «فتاة بوتوروكية محتشـمة» والذي يعني أن عليها أن تكـون واعية في كل الأوقات، وأن عليها التصرف وفق الطريقة المتبعة وليس عكسها ـ وإن لم تفعل ـ ماذا سيقولون؟ إن أم سانتيجو لم تكن المتحدث الرسمي لهذا النظام فقط ولكن أيضـاً المحرضة عليه، أو كأنها الاسـتخبارات المنزلية. عندما كنت أتحدث إلى زملائي الأولاد في الفصـل كنت أتخيلهـا تظهر لي وتذكرني بأن الفتاة المحتشمة لا تفعل هذا. معظم الثرثرة التي تصفها سانتيجو كان لها علاقة بالحفـاظ على السـلوك المنضـبط و الابتعـاد عن الجنس. فطهـارة المرأة وعفتها جنسياً كما في كثير من الثقافات تعتبر من شرف العائلة.

لقد كانت تجربة سانتيجو محبطة بالذات لأن أمها توقعت من ابنتها التي كانت تعيش في نيويورك أن تلتزم بالمعايير التي تطبق في القرية الصغيرة في بورتوريكو. لكن كل أم تواجه تحديًا مرعبًا عندما تصل ابنتها سن البلوغ.

الصديقة العزيزة

كتبت آن هولبيرت في كتابها «تربية أمريكا» أن النصيحة الموجهة للطفل قد تغيرت خلال القرن الماضي بين التشديد على الصداقة والعاطفة وبين التأديب والسلطة. وهذه طريقة أخرى للحديث عن المفارقة بين التواصل والتحكم. فإن التعامل مع حياة البنت الجنسية التي في طور النمو يجعل الأم تتربع فوق هذه المفارقة والمعضلة. فهي على الأرجح ستكون أكثر نجاحاً لو أنها أخذت دور الصديقة، وبالفعل فإن الكثير من الأمهات الأمريكيات

والبنات يتكلمن عن بعضهن كصديقات عزيزات. لكن الأم التي تأخذ هذا الدور كجزء من وصف وظيفتها تواجه خلافاً في الاهتمامات لا مفر منه. إن الصديقة لا تحمل عبء حمايتك كأمك، إن دور الصديقة العزيزة يتصادم مع دور السلطة الذي يأتي مع كونك أماً.

كتبت آنا توفاريز خلال دراستها لحوارات بين الأمهات والبنات عن مثال من مقطع برنامج تلفازي. في المشهد تلاقي الأم ابنتها وصديقاتها في السوق وتحاول جاهدة أن تمثل على أنها واحدة من البنات وأن ترفع ما بينهما من حواجز. ثم بعد عودتهما للمنزل عاتبت الابنة أمها وقالت إنها قد أحرجتها أمام صديقاتها: «لا تتصرفي كما لو أنك صديقتي! أنت أمي». «حسناً» قالت الأم، ثم أكملت الأم: «اذهبي إلى غرفتك». ثم غيرت البنت هجومها وقالت: «كنت أعتقد أننا صديقات». هذا المقطع يصور بطريقة موجزة المفارقة التي تتفاعل بين الحب والسلطة بين البنات وأمهاتهن. عندما تكون البنات في سن صغيرة فإن لعب الأم لدور الصديقة العزيزة ينجح بطريقة واحدة: عندما يخبر البنات أمهاتهن عن مشكلاتهن لكن الأمهات لا تخبر البنات بالمقابل عن المشكلات التي يواجهنها. كثير من النساء التي عاملتهن أمهاتهن على أنهن صديقات مؤتمنات على الأسرار أدركن أن هذا عبء وحمل ثقيل على أكتافهن. لكن عندما تصبح البنت راشدة فإن تقايض إشارات الثقة المتبادلة تشير إلى الصداقة. وإذا لم يحدث هذا فإن واحدة منهن ستشعر بخيبة الأمل كما وصفت امرأة في السبعينيات من عمرها، قالت: إنها قد توقعت أنه سيكون باستطاعتها اللجوء إلى ابنتها عندما تشعر بالوحدة أو بالقلق على صحتها أو أمورها المادية. لكن رفض ابنتها لأخذ هذا الدور يشعرها بالألم الشديد. يبدو أن

الابنة لا تود لعب دور الصديقة العزيزة، لأنها لا تود أن تشعر بالمسؤولية ومن ثم الالتزام بتبديد أسى وحزن أمها. وبمعنى آخر فإن الابنة في هذه المرحلة من العلاقة تناضل في محاولة التسوية بين الحب والمودة وبين التزاماتها ومسؤولياتها التي تأتي تبعاً للتواصل.

ولكل هذه الأسباب فإن دور الصديقة العزيزة الذي هو مصدر الكثير من الرضا والراحة بين الأمهات والبنات لكنه من الممكن أيضاً أن يسبب التشويش والنزاع.

الأستاذة الأم

مرحلة أخرى تمر فيها الأم والبنت وتضعهما في منتصف طريق المفارقة بين الحب والسلطة، وهي المرحلة التي ترزق فيها الابنة بطفل. فإن الابنة التي تمر في حالة الولادة تكون قد تشاركت مع والدتها بشيء جديد. لكن هذا لا يضعهما في مرتبة واحدة، فالأم لها خبرة أكبر في هذا المجال، لذا ففي حالات كثيرة تتوقع الاثنتان أن الأم ستقوم بتعليم الابنة كيف تكون أماً.

أتت أم شيري لتساعدها بعد ولادتها لمولودها الجديد، وقد أخبرتني شيري أنها نظرت لأمها على أنها «المشرفة الكبيرة» فقالت: «إن كلينا يعرف أنني جاهلة في هذا المجال». لذا فإنها غالباً ما كانت تسأل أمها: «ماذا أفعل الآن؟»

امرأة أخرى تدعى رينيه قالت: إنها عندما وضعت مولودها فإن أمها أتت لمساعدتها، وبقيت معها مدة ثلاثة شهور. قالت أم رينيه لابنتها: «لن أتركك

على الأقل مدة ثلاثة شهور لأنك لا تعرفين كيف تتصرفين مع الطفل». «كنت أماً تحت التدريب». وصفت رينيه كيف أن أمها علمتها فعل الأشياء بالطريقة الصحيحة مثل تنظيف الطفل وإطعامه وغيره، لكن كان من الواضح من طريقة كلام رينيه أنها كانت ممتنة لمساعدة أمها ودروسها.

تساعد كثير من الأمهات بناتهن بهذه الطريقة، لكن هناك طرق أيضًا يفشلون بها، مثلاً عندما وضعت تيريسا مولودها الأول حضرت أمها للمساعدة. وقد كانت تيريسا ممتنة لمساعدة أمها لكنها شعرت أيضاً بأن أمها كانت تسيطر على كل شيء. عندما كان يبكي الطفل كانت أم تيريسا تهرع لحمله وتصل للطفل قبل وصول تيريسا لطفلها. شعرت تيريسا هنا كما لو أنها كانت تتبارى في سباق، وقد شعرت بأن نصائح أمها الدائمة عن كيفية الاعتناء بالطفل جعلتها تشعر بعدم الراحة فقد كان كل شيء تفعله متقن للغاية.

فإذا كانت تريسا قد غضبت من أمها لأنها كانت تملي عليها كيف تعتني بطفلها فإن «بيني» في القصة الآتية قد غضبت من أمها لأنها لم تفعل. عندما وضعت بيني طفلها الأول وحضرت أمها للمساعدة، شعرت بيني أن أمها كانت تملي عليها فعل أشياء لم تعرف بيني كيف تقوم بها، فقد كان لبيني في صغرها مربية تساعدها. مثلاً أصرت أمها وبشدة أن الأطفال يجب إعطاؤهم حمامًا كل يوم وفي الوقت نفسه، لكنها في الحقيقة لم تقوم بإعطاء طفل حمامًا في حياتها. وأيضًا أصرت على أن البيت يجب إبقاؤه نظيفًا ومنظمًا وهذا سهل عندما يكون عندك من يخدمك ويقوم بهذا عنك. لكن هذا غير واقعي لبيني التي تقوم بكل هذه الوظائف بنفسها. ومن الممكن هنا القول بأن بيني شعرت بأن أمها لم تقف إلى جانبها لأنها لم تملأ دور الأستاذة الأم.

من المؤكد أن تفشل الأمهات أحيانا في دور الأستاذة الأم لأن افتراضية معرفة العناية بالطفل من المؤكد أنها تتغير مع السنين عما قد اعتادت الأمهات عليه، ومنذ اكتسبن خبرتهن.

حتى شيري التي بالفعل قدرت مساعدة أمها وحكمتها تخبرنا عن نصيحة أسدتها لها أمها وقد كانت سعيدة أنها لم تعمل بهذه النصيحة. كانت حرارة طفلها مرتفعة وقالت أمها: «قومي بلفه جيدًا واجعليه يشعر بالدفء والحرارة، إن عليه أن يعرق كثيرًا حتى يتخلص من هذه الحرارة». فقمنا بلفه ببطانيات كثيرة وقد بدا وكأنه حبة طماطم صغيرة. ثم قلت سأقوم بالاتصال بالطبيب وبالفعل اتصلت فقال الطبيب: «أوه .. لا! هذا من شأنه أن يقتل الطفل. قومي بإعطائه حمامًا وبغمره بالماء حتى تبرد حرارة جسمه». ثم قالت أمي: «حسنًا هذا ليس ما فعلناه في أيامنا». فأجبتها: «نعم.. ولكننا نحاول ألا نقتل هذا الطفل، إنه وحيدي».

التلميذة الكسلانة

بالرغم من أن أم شيري قد وفّت بإحدى متطلبات وصف الوظيفة من خلال تعليم ابنتها الراشدة كيفية العناية بالأطفال، فإن النصيحة التي قدمتها لابنتها حول حرارة الطفل كانت خاطئة. إن المعالجة الطبية وجه من وجوه العناية بالطفل والتي تتغير من جيل لآخر. إن وصف الوظيفة الخاص بالأم الصغيرة يتطلب في بعض الأوقات أن نتراجع خطوة إلى الخلف لمن نعتقد أنهم أكثر خبرة ومعرفة. لكن هذا التوقع مصاحب للفكرة المناقضة والتي تقول إن علينا معرفة ما نفعل بالغريزة. في كتاب «قناع الأمومة» علقت سوزن موشارت على هذا بسخرية وقالت: «بدأ الخبيران الدكتور

سبوك وبينيلوب ليش بالقول إن على الأم أن تثق بغريزتها، ثم استمرا وقاما بتقديم كتب مليئة بالنصائح للأمهات، وهذا تلميح بأن قراءهم من الأمهات لا يستطعن أن يثقن بأنفسهن».

ولزيادة حجم المشكلة فإن نصائح الخبراء دائمة التغير، لذا فإن الالتزام بما يقول الخبراء بالضبط يعني أنك ستكتشفين قريباً أن تصرفك في الماضي كان خاطئاً. لم يمضِ وقت طويل منذ أن حذر الخبراء الآباء في أمريكا من إظهار أي عاطفة أو مشاعر جسدية للأطفال. ومن ثم كان هذا تزويد جيل كامل بالأدلة السيئة والتي تؤكد فشل آبائهم بإظهار الحب. قال الخبراء أيضاً: إن على الأمهات اتباع جدول صارم في الأوقات التي يأكل فيها الطفل بغض النظر عن بكائه. حتى أتى جيل جديد من الخبراء اخترعوا طريقة جديدة ثائرة للإطعام تدعى «الإطعام وقت الطلب». وهذه الطريقة الجديدة علمت الأم أن تتأقلم مع السماح لأطفالها بالأكل في أي وقت يشعرون به بالجوع. الأطباء هذه الأيام يشجعون الأمهات على إرضاع أطفالهن رضاعة طبيعية، لأنهن يعلمون الآن أن حليب الأم يوفر المضادات الحيوية، والتي لا يمكن الحصول عليه من الحليب الصناعي. وبالرغم من هذا كانت طبيبة أمي قد سألتها عندما علمت أنها تنوي إرضاع طفلها الأول من ثديها: «ماذا؟ ماذا تعتقدين نفسك... بقرة؟»

ليس على الأمهات أن ينتظرن جيلاً بعد جيل حتى يعلمن أن محاولاتهن لفعل كل ما هو جيد لأطفالهن قد يضعهن في وضع خطر. قالت امرأة لها أطفال صغار: إنها اتبعت نصيحة الخبراء في تعويد طفلها الرضيع على النوم على بطنه. وفقط بعد ثلاث سنين وعند ولادة طفلها الثاني قد أخبروها أن هذا خطير على حياة الرضيع، وأن الخبراء الآن يجمعون على وضع الطفل على جنبه وقت النوم.

إن وجود كل هذه الكتب الكثيرة والمقالات والمجلات وبرامج المذياع والتلفاز لإعطاء الآباء النصيحة حول العناية الصحيحة بأطفالهم ترسل للأمهات رسالة خفية مضمونها: «إنك تقومين بعمل أنت غير مؤهلة له». والرسالة بحد ذاتها مزعجة أكثر من المعنى الخفي داخلها.

فسر عالم الاجتماع فرانك فيوريدي في كتاب «الأمومة المشبوهة». إن نصيحة الخبراء الأمريكيين مصممة على إعطاء الأمهات شعوراً غامراً ومبالغاً فيه للخطر الموجود والذي يهدد أبناءهم. لذا فإن الشيء نفسه الذي يفعلنه لتأكيد على أنهن يقمن بهذه الوظيفة على أكمل وجهه ـ باتباع نصيحة الخبراء ـ هو بالتأكيد الذي سيزيد من عدم ثقتهن في أدائهن لهذه الوظيفة.

الزعيمة المرشدة ـ في كل شيء

عندما كنت في الصف الثالث الابتدائي كنت متأخرة ذات صباح وفجأة أدركت وأنا مذعورة بأنني لم أحضر أي شيء لعرضه على زملائي في الفصل أثناء فقرة «أرينا وأخبرنا» ـ وهي فقرة يقوم الطالب أو الطالبة بها بعرض شيء على الطلاب وإخبارهم بقصة أو خبر ـ وقد ساعدتني أمي في هذا حيث أخبرتني عن بعض الأخبار التي سمعتها من المذياع: فقد توفي نات كنج كول. ثم وقفت في الفصل ذاك اليوم وعرضت معلوماتي على زملائي واكتشفت أن أمي كانت على خطأ. فقد كان نات كنج كول مازال حياً، وقد كانت مدرستي لطيفة. فمازلت أتذكر ذراعها يلتف حول كتفي عندما رأت الذعر في عيني بسبب تصحيحها معلوماتي. أتذكر عمق الإحراج الذي شعرت به والذي جعلني بالطبع ألوم أمي بمرارة.

في ذكرى أخرى كنت في الصف السادس في سِنِّ الثانية عشرة. وبسبب قانون تقسيم المقاطعات كنت أنا الوحيدة من بين زملائي التي علي الانتقال إلى مدرسة جديدة. كنت وقتها غير واثقة من صداقاتي، لكني كنت متحمسة وقلقة فقد دعيت إلى حفلة عيد ميلاد روزيلين. أردت شراء لعبة لروزيلين فأخذتني أمي إلى محل للتخفيضات أشبه بمستودع قمنا بتفحص المعروضات بحثًا عن شيء تستطيع أمي شراءه. وبناءً على نصيحة أمي فقد اشتريت دبًا صغيرًا. وبعدها بأيام وفي الحفلة كانت روزيلين تفتح الهدايا بحضور جميع البنات حولها. وعندما فتحت هديتي رأيت على الفور أني قد ارتكبت مصيبة، لاحقًا اعترفت روزيلين لي أن الهدية كانت أصغر من سنها، ومرة أخرى فقدت الثقة في أمي قد سببت لي إحراجاً عاماً، وشعرت وقتها بالخيانة وعدم الغفران.

في ذاك الوقت سببت لي هذه الأحداث وعدد لا يحصى مثلها الكثير من المعاناة، وبدا هذا على أنه دليل على فشل أمي.

وبنظري إلى الوراء الآن فإن المضايقات التي قامت بها أمي كانت في الحقيقة صغيرة وأستطيع أن أتفهمها الآن. فكم مرة شرد ذهني وأنا راشدة ولم أسمع نشرة الأخبار بالكامل على المذياع. أو قمت بشراء هدية غير لائقة؟ أنا أستطيع رؤية هذا الآن لكن عندما كنت طفلة كنت أتوقع أن تعرف أمي كل شيء وتعطي كل شيء وأن تكون بدون أخطاء. ومن وجهة نظري في ذلك الوقت فإن هذا لم يكن توقعًا غير عقلاني بالكامل، لأن أمي كانت معتدلة وصائبة في كل شيء في عالمي تقريبًا. (أبي كان ككل الآباء يعمل ساعات طويلة وكان نادرًا ما يجلس في المنزل).

تستمر كثير من النساء الراشدات في النظر لأمهاتهن كخبيرات في كل شيء. فقد كان زوجي يقوم بالتسوق استعدادًا لعشاء عيد الشكر، وكان يبحث عن بهارات معينة ويتحدث إلى زبونة أخرى تبحث عن نوع البهارات نفسها وقد تساءل ما إذا كانت بهارات الدجاج العادية تفي بالغرض. فقالت الزبونة: «لا» بشكل قاطع، وقد كان الهاتف الجوال في يدها وأكملت: «لقد تكلمت مع أمي للتو، يجب علينا إيجاد البهار المناسب».

كثيرٌ منا يعتمد على أمه في الطبخ أيضاً. هنا مثال لبنت تعتمد على حكم أمها في مجال مختلف نهائيًا. ففي سنة 2003م نظرت بولي يورك إلى الوقت الذي وجدت فيه نفسها متورطة في العلاقات الخارجية. كتبت «سالي» بنت بولي ذات العشر سنوات رسالة إلى مانيوال نوريجا في عام 1988م، مانيوال هذا كان حاكم باناما في وقتها، وقائداً بلا رحمة. لم يُجب هذا القائد على رسالة البنت الصغيرة فقط، ولكن قام بدعوتها وأمها لزيارته في باناما متكفلاً بتكاليف الرحلة. بولي لم تكن متأكدة مما إذا كان تقبل هذه الدعوة تصرف حكيم. اعتقد أخاها أن هذا سيكون تصرفاً خاطئاً فقال: «إن هذا الرجل سيئ، ليس عليك أن تقتربي منه أبداً». لكن بولي لم تكن متأكدة. لهذا قامت باستشارة أمها ـ وليس إدارة الولاية ـ وبعد التفكير بالموضوع، قالت لها أمها: «لا أعتقد أنه سيكون هناك أي مشكلة من ذهاب سالي، أعتقد أنها ستكون تجربة عظيمة». بولي قررت الذهاب مع ابنتها إلى باناما كضيوف عند نورويجا، لأنها وكما فسرت بعد سنوات عبر برنامج راديو: «لقد كانت أمي راضية عن ذهابي.. وكما تعرفون كان هذا كل ما أحتاج إليه».

لم يكن تصرف بولي غريباً في تثمين حكم ورأي أمها لهذه الدرجة، فرينيه التي قدرت دروس أمها في الأمومة أيضاً ثمنت نصيحة أمها في هذا المجال. وعندما ترى أم رينيه أن ابنتها تتصرف بطريقة ليست في مصلحتها فإنها تنادي رينيه وتقول لها: «تعالي إلى هنا.. دعيني أركب رأسك على كتفيك بالطريقة السليمة». مثلاً خلال زيارتها لها لاحظت أم رينيه أن ابنتها تهرع مسرعة فور وصولها للمنزل إلى إعفاء زوجها من العناية بالطفل. وبالطبع بما أنها في صف ابنتها قالت لها يومًا: «دعيني أركب رأسك على كتفيك بطريقة سليمة.. أنت تعملين تماماً كما يعمل هو، وعدد ساعات عملك طويلة. اعتني بنفسك أولاً.. غيري ملابسك وخذي حمامًا. هو يستطيع أن يراقب الطفل لدقائق زائدة». وفي مواقف كهذه تكون رينيه ممتنة لوجود أمها ونصائحها.

لكن قالت امرأة أخرى إنها بالرغم من أنها تقدر نصيحة أمها فإنها تسأم منها عندما تغمرها أنواع أخرى من الاتصال. معظم النصائح التي قدمتها أم روبي كانت جيدة، وقد أخذتها: «يجب عليك أن تكوني القوة المالية في المنزل.. أنت تسيطرين على المال». قالت روبي ضاحكة: «مسكين ..زوجي» و نصائح كهذه: أرسلي رسائل الدعوات مبكرًا إذا كنت تودين إقامة حفلة، ولا تبدئي بالأكل أبدًا قبل أن تصل صحون الطعام لكل الموجودين معك، أو القانون المهم وهو عند ترتيبك لطاولة الطعام فإن الملاعق والشوك يجب أن تبعد أنشًا عن زاوية الطاولة. لكن أحياناً كانت أمها تردد نصائح حتى بعد أن تعلمتها روبي، فكم مرة عليها أن تسألها: «هل أنت متأكدة من أنك أطفأت أنوار شجرة عيد الميلاد حتى لا تحرقي المنزل». وليست كل نصائح الأمهات سليمة. فأم روبي مقتنعة من أنك

لو وضعت السكاكين الفضية في غسالة الصحون فإن مقابض السكاكين ستنفصل عن الشفرة. علقت روبي: لقد أمضيت عشرين عاماً وأنا أجري التجارب على هذه النظرية والمقابض مازالت عالقة بالسكاكين. في النهاية تشعر روبي بأن النهر الجاري من النصائح يزحم أنواع الحديث الأخرى بينهما فتقول: «إن حواراتنا خلال زيارتها كانت غالباً ما تدور حول النصائح». ثم تابعت: أنا لا أعتني بنفسي وأضع زوجي وأطفالي أولاً، نادرًا ما أذهب للتسوق وكما رأينا فإن النصيحة تتحول بسهولة إلى انتقاد.

ترفض كثير من النساء أخذ نصيحة الأم حتى عندما تتأكد بالفعل من خبرة أمها. ذكرت خبيرة تصميم مشهورة أن ابنتها رفضت أخذ أفكار تصميم منها، بالرغم من أن كل من في المدينة يحاول أن يفعل ذلك. هذه الابنة الشابة لا تود لأحد أن يعتقد أن منزلها جميل بسبب لمسات أمها بل هي لمساتها. وقد كان هذا محبطاً للأم ليس فقط لأن البنت أخطأت في التصميم والترتيب ولكن لأن السبيل الذي كانت تستطيع مساعدة ابنتها من خلاله قد أقفل في وجهها. وبمعنى آخر فإن الزعيمة المرشدة ليست فقط جزءاً من وصف الوظيفة التي من الصعب إتمامها، ولكن حتى وإن أديت الوظيفة على أكمل وجهة فباختصار ربما سيأتي اليوم الذي تجدين نفسك فيه مطرودة من العمل.

سنارة المشاعر المشتعلة

كنت في الأربعين من العمر، وكنت وقتها في وسط نقاش حاد مع والديّ. وكنت أشرح لهما لماذا كنت مجروحة من ملاحظة كنت سمعتها من والدي. وأمي كانت تدافع عن والدي و تحاول تبرير ما قاله سابقاً. وجدت نفسي

بعدها أعنفها بقوة وتوقفت في وسط النقاش وسألتها: «لماذا أصرخ عليك بينما أنا غاضبة من أبي؟» فقالت أمي: «بالفعل. لماذا تصرخين علي؟» وعند أخذ أمي مكان والدي في النقاش فقد أصبحت كالنائبة الرمزية عنه. لكن لماذا انتقل غضبي إليها؟ أدركت أني لم أصرخ على والدي أبدًا ولا على أي أحد آخر إلا أمي. كنت أعتقد أن السبب في هذا لأنها كانت تغضبني أكثر من أي شخص آخر، لكني أتساءل الآن ما لو كان هناك أسباب أخرى. هل كنت معتادة على أن أكون غاضبة منها ومعتادة على عدم الغضب منه؟ ربما لأني كنت أعلم أنها ستسامحني وتحبني مهما بدر مني من كلام. بينما من المحتمل أن يحقد والدي علي للأبد. وهذا التفسير هو أكثر تفسير أشعر بالذنب تجاهه، فهل رأيتها هدفاً أسهل من والدي.

أنا لست الوحيدة هنا في جعل أمي الهدف الرئيس لغضبي، فقد كتبت تلميذة في فصلي الآتي:

«قبل أربع ساعات من حفلة عشاء الشكر جلست لتقشير البطاطا الحلوة لعمل طبق البطاطا الحلوة الخاص بي، ومع أول قشرة بطاطا تقع في مغسلة المطبخ لاحظت أن الجذور كان لونها أصفر فاتحاً بدلا من برتقالي مائل للحمرة: لقد اشترت أمي النوع الخاطئ من البطاطا. غضبت كثيرًا لأن طبقي لن ينجح وكانت ردة فعلي الفورية هي: «كيف تفعلين هذا؟ أعتقد أنني لن أستطيع عمل الطبق الآن». وبعد جدال طويل قال لي أخي الأكبر: «أنت لئيمة مع أمي أكثر من أي شخص آخر». وقد ندمت عندما فكرت بهذه الملاحظة فقد كانت صحيحة تماماً. إنني أتردد قبل أن أتكلم بطريقة غير محترمة مع شخص لكن مع أمي فالحال مختلفة».

ووفقاً لباحث علم الاجتماع ساميوويل فيشينيش فإنني وتلميذتي طبيعيتان. قام فيشينيش بتسجيل وتصوير أربعة وستين حوارًا دار حول مأدبات العشاء لاثنتين وخمسين عائلة. في محاولة لاستكشاف نشأة الخلاف ونهايته. وقد لاحظ أن الأطفال هم عرضة أكثر لبدء النزاع مع الأم أكثر من الأب. إن الأمهات هنا كما لو أنهن سنارة تصطاد المشاعر المشتعلة، تمتص وتطحن المشاعر السلبية والإيجابية التي تدور حول العائلة. وهذا صحيح إلى حد ما لأن الأمهات موجودات حول الأولاد أكثر، الشيء الذي يخلق مشاحنات واستفزازات أكثر. وربما لأنه من المتوقع من النساء أن يكن أكثر تعبيراً وأكثر راحة مع المشاعر. لكني أتوقع أن السبب يعود كما وجدت أنا مع نفسي ومع احترامي لأمي أن النساء أهداف سهلة، إما لأن النساء تبدو أكثر عرضة للجرح، أو لأن فرصة انتقامهن من الآخرين قليلة.

اللعبة العادلة للحكم

وكما أنه لا يكفي أن تكون الأم هي الهدف المنزلي لغضب العائلة، فإن الأمهات في أغلب الأوقات تقوم بامتصاص عدم الرضا والحقد والعدوان من العالم خارج العائلة. وتعبر كثير من النساء بحرية عن عدم الرضا لامرأة أخرى لا تعرفها أكثر بكثير من تعبيرها لرجل.

مازالت تتذكر امرأة لها أولاد في الثلاثين من العمر الموقف الذي حدث مع ابنتها عندما كانت في الخامسة من العمر. تقص الأم وبذكاء كيف أن ابنتها تسببت بخروج أمها وإخوانها من قاعة التزلج بسبب سوء أدبها. وفي الطريق إلى الخروج التفتت الفتاة وضربت أخاها احتجاجًا على ذلك.

في النهاية فقدت الأم صوابها وقامت بصفع البنت مما جعل الأم هدفاً سهلاً لخطبة شخص غريب. قال لها: «توقفي عن إساءة معاملة طفلك! لقد جربت الإساءة وأنا صغير، ولا أتحمل أن أرى هذا».

أم أخرى تمت معاقبتها من قبل غريب في إحدى الأسواق. فقد كان يتحدث طفلها الصغير مع امرأة في السوق عن الكلب الصغير الذي ينتظرهم في السيارة. فالتفتت المرأة وبدأت بإعطاء الأم خطبة فقالت: «لا يجب عليك ترك الكلب في السيارة فالحيوانات تختنق من الحرارة بهذا الشكل». أكدت الأم للمرأة الغريبة بأنه ليس هناك خطر، فالكلب الذي تركوه بالسيارة كان في الحقيقة عبارة عن لعبة محشوة. ضحكت الأم بعد ذلك من هذا الموقف لأن المرأة الغريبة هي التي بدت كالمغفلة في نهاية الأمر. لكن الأم التي تعاني من سوء أدب أطفالها أمام الناس بسبب حالة نفسية أو جسدية، أو خروج طفلها عن السيطرة فهي لا ترى أي شيء مضحك في توبيخ الغرباء لها بسبب سلوك أولادها غير الاجتماعي.

أم لطفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات ونصف ويعاني من مرض التوحد. عانت الكثير ليس فقط من العناية بطفلها الصغير وحالته المرضية في أماكن مزدحمة بالناس، ولكن أيضاً من تعبيرات الغرباء غير المرضية. فسرت الأم ماري لي أن قدرة طفلها على الكلام محدودة كحال كل الأطفال المصابين بالتوحد، وهو ومفرط الحساسية تجاه الأشياء الحسية والمنبه. لذا فهو يتدرج بالنزول إلى ما تسميه الأم «نقطة اللاعودة» حيث يدور دماغه إلى أن يصل إلى الانفجار المحتوم. نوبات من الغضب غير محتملة، والتي من السهل عليه الوقوع بها لكن إخراجه منها قصة ثانية. في مرة من المرات كانت تحاول الأم جاهدة رفع ابنها وهو يصرخ حتى

تستطيع حماية رأسه من الإصابة عندما سمعت رجلاً يناديها ويقول: «هاتي الطفل إلى هنا». وقد كان مقتنعًا أنها قد فشلت في تأديب طفلها فكان قد عرض عليها أن يؤدبه نيابة عنها.

أنا لا أشك في أن الناس غالبًا ما ينتقدون طريقة معاملة الأب مع أولاده أمام الناس. لكنهم على الأرجح لن يقوموا بتوبيخ رجل مخافة من أن يتسببوا في رد عنيف وغاضب. لذا فإن الآباء غالبًا لا يتعرضون لهذا التوبيخ كما أنهم غالبًا لا يظهرون بالأماكن العامة وهم يعتنون بالأطفال. لكن بالنسبة للأم فإن الهجوم المتصيد من غريب هو رسالة تذكير خالدة بأن أمومتها تحت التدقيق الدائم.

القدوة المثالية

إن الغرباء الذين ينتقدون طريقة تربية هؤلاء النساء يتوقعون أن تكون هذه النساء قدوة مثالية لأبنائهن في كل دقيقة من اليوم. وكما رأينا فإن التوقع نفسه موضوع من أبنائهن. إنه شيء مؤلم أن يحكم عليك أحدهم ويفند أخطاءك. لكن حتى وإن كان قد حكم عليك وكنت الفائز فشعور أنه عليك لبس هذا التاج على رأسك طيلة اليوم وكل يوم شيء مزعج أيضاً. إن كونك الهدف المثالي بالتأكيد أفضل من كونك العكس، لكن هذا أيضاً قد يصبح حملاً على الأم والتي هي بعد كل هذا مجرد إنسانة تحاول أداء وظيفتها.

إذا كانت البنت تنظر لأمها وتقول لنفسها أنا لا أود أن أكون مثلها فإنها ربما تنظر إليها وتقول أنا أود أن أكون مثلها تمامًا ولكن لا أدري إذا كنت أستطيع ذلك. وهذا يضع الاثنتين في موقف حرج. تتذكر بيتي أمها

وتقول: «إن الأمر بدا كما لو أنها كانت تسيطر على كل شيء وكل شيء يدور في مكانه. أنت تعلم ما أعنيه.. بدت وكأنها ربة البيت الكاملة والأم الكاملة وصاحبة المهنة، وكل شيء بدا نظيفاً طيلة الوقت». لكن أدركت بيتي بتدرج أنها وأمها شخصيتان مختلفتان. قالت: «وكان المنادي الذي نبهني في النهاية هو بيتي: أنت تحاولين أن تكوني أمك. أنت لست أمك. يجب عليك إيجاد نفسك. لذا كان علي إيجاد نفسي».

وصفت امرأة أخرى منظراً مشابهاً لهذا فقالت: «أتذكر مراقبة طريقة لبس أمي خصوصاً في مرحلة المراهقة. وأتساءل بحيرة لماذا لا تعرق أمي أبدًا؟ هي دائماً تبدو جميلة. وأنت تعلم كيف يشعر المراهق في مرحلة المراهقة وكأن كل جسدك في مرحلة عصيان. ووجهك مليء بالحبوب وتفوح من فمك رائحة كريهة. وأمي بدت دائمًا مرتبة وجميلة وكنت أراها وأقول.. يا إلهي لا أستطيع الانتظار حتى أكون مثلها». وقوف الأم على منصة المثالية بهذا الشكل يجعلها تواجه المصاعب في الحفاظ على توازنها في الطريق الطويل، والمكافحة في عدم إظهار هذه الأخطاء أمام ابنتها.

إن النظر للأم على أنها في مرتبة مثالية هو توقع غير عقلاني، حتى ولو كان من البنت. قالت ألما: «إن رأي أمي مهم جدًا بالنسبة لي. لو أنها لم ترض عن شيء فعلته أو أنها رفعت صوتها في وجهي فسأشعر بالتحطيم. لذا كنت دائمًا متأكدة من أنني أتصرف بالطريقة التي تحب. وأي تعليق تمرره لي ربما يجعلني أغير وأصلح حياتي وموقفي».

أدركت ألما بعد سنين أنها كانت قد أخطأت في فهم بعض تعليقات أمها وقد كانت غيرت من أسلوبها بناءً على تعليقات أمها. اعتقدت ألما

أن أمهـا سـتبقى في المنزل مع الأطفال الصـغار لبضـع سـنين لتربيتهم، فأجابتهـا أمها: «يا إلهـي هذا ممل». وبالنظر إلى الـوراء فإن ألما متأكدة جـدًا مـن أن هذا التعليـق لعب دورًا كبـيرًا في قرارها لتأخـير حملها لمدة طويلة. وبعد ذلك بسنين وعندما ذكرت لأمها كيف أنها فسرت تعليق أمها ونفذت المعنى الذي يتضـمنه أجابـت أمها: «أوه.. لم أعنيه بهذه الطريقة، كان مجرد تعليق عابر، وليس سـببًا لتجنب البقاء في المنزل مع أطفالك». إنه لحمل كبير أن تعرفي أن كلمة منك ربما تغير مجرى حياة ابنتك، أو أن هناك شخصًا يراقب كل حركة تقومين بها، وربما يحاول تقليدها.

أهم عمل في حياتك

إن معظم تقييم المرأة لنفسها كإنسانة يتم بناءً على نجاحها كأم، وهذا يجعل الكثير من النساء تتنافس مع أمهات أخريات. قام شخص بالاتصال ببرنامج مذياع يشكو من «الأمومة التنافسية» واتفقت معه ضيفة البرنامج سوزن دوغلاس وأطلقت عليها اسم: «الأولومبية الأنثوية العظمى». فمثلاً: الطفل الذي يبيع علب بسكويت أكثر في مقصف الفصل لجمع المال للفصل هو الرابح، وفي حفلة الفصل، فالطفل الذي يلبس الزي التنكري المصنوع في البيت هو الفائز، أما المسكين الذي ابتاع زيه من السوق يخسر. وهكذا. وقد لاحظت أُمٌّ هذا الاندفاع المضحك في نفسها، فقالت: كنت أكتب إلى ابنتي الرسائل يوميًا أثناء غيابها في المخيم الصيفي؛ لأنني كنت أتنافس مع الأمهات الأخريات على لقب «الأم الأفضل لهذا العام»، وبفكاهة ذكرتها ابنتها بأن هذا اللقب لا يمكن الفوز به، وزادت ساخرة: «إن أم ستيسي تكتب لها كل يوم أيضاً، وبأبيات شعرية».

قامت الطبيبة النفسية جانا مالامود سميث في كتابها «السحر القوي» بمقابلة الكثير من النساء ولم تجد واحدة متأكدة من أنها قد فعلت كل شيء على أكمل وجه. وبكلمات سميث: «فإن الأمهات اليوم يواجهن الكثير من النقد والمتطلبات المتنوعة والمتناقضة، حيث انتهى الأمر إلى الشعور بعدم الاتزان وعدم اليقين وعدم الاطمئنان تجاه أنفسهن وتجاه تصرفاتهن».

كتبت الشاعرة آندرينا ريتش في كتابها «ولادة امرأة» أنها لم تدرك حجم شعور الذنب الذي يأتي مع دور الأم إلا عندما أصبحت أماً:

«أصبحت بسرعة أفهم حجم حمل ذنب الأمومة، في النهار والليل وفي كل ساعة، هل أنا أفعل ما هو صحيح؟ هل أنا أقدم المقدار الكافي؟ هل أنا أزيد من عطائي؟ إن قانون الأمومة يجد كل الأمهات مذنبات بطريقة أو بأخرى في الفشل مع أبنائهن».

ووفقًا لريتش فإن شعور أمها بالحمل لم يأت فقط من المجتمع الذي حولها ولكن أيضًا من والدها، الذي كان يتوقع من زوجته أن تربي أطفالاً مثاليين. لكن عندما لا يرمي الآباء على الأمهات هذا الحمل فإن الأمهات أحيانًا يحملنه بأنفسهن وفي الوقت نفسه يحملنه لأطفالهن. وإذا كان نجاح الأم يقاس بكمالية الأطفال إذاً فالأطفال يحملون نفس العبء الذي تحمله الأم. ومتى كان الطفل أقل من كامل فإنه بذلك يخيب أمل أمه.

إذا كانت الأمهات يسألن أنفسهن في كل يوم وليل وساعة ما إذا كان ما يفعلنه صحيحًا، إذًا فإن مراقبة النفس تتصاعد عندما يحدث خطأ في حياة الطفل. ترسم لنا ماري جوردن صورة لمراقبة النفس الداخلية في روايتها «اللؤلؤ». في بداية الرواية تكتشف الأم ماريا بأن ابنتها التي

كانت تعتقد أنها تدرس اللغة الأيرلندية في دبلن قد قامت بتقييد نفسها بسارية العلم خارج السفارة الأمريكية بدبلن وأنها على وشك الموت بسبب الإضراب عن الطعام. تصاب ماريا بتشنج من لوم نفسها وبدون السبب الذي دفع البنت لتدمير نفسها بهذا الشكل:

«ما الخطأ الذي فعلته يا ترى؟ هل كانت متساهلة كثيرًا؟ أو لم تكن متساهلة بالمرة؟ هل كانت كأم الدب الصغير التي تعتقد أن كل ما يحتاجه صغيرها هو الدفء والطعام ومكان تحت ذراعها قريبًا من دفئها. وأن قربها منه واحتضانها له سيأخذ مكان أشياء أخرى. ربما احتاجت شيئاً آخر. نوع من المعرفة نوع من التميز والاهتمام. هل اعتقدت بأن هذا الحب الغامر الذي هو كالتنفس والنوم سيكون هو الذي سيعبر بابنتها خلال هذا. أو أنها لم تقدم الذي قدمته أم الدب الصغير؟ هل كانت تصدر الأحكام الكثيرة على ابنتها؟ أو أنها لم تكن تتقبلها كما هي؟ هل فشلت في الطبخ بشكل كاف؟ هل كانت تفرض رأيها بعنف وبكثرة؟ هل قضت وقتاً طويلاً في العمل؟ هل كان عليها تقليل ساعات العمل؟ هل كان عليها الوجود في المنزل أكثر؟ أو أنها كانت كثيرة التطفل ولم تعط ابنتها المساحة الكافية؟ ما الخطأ الذي اقترفته؟ ما الخطأ الذي اقترفته؟»

بينما كانت ماريا متأكدة من أنها المذنبة لصنيع ابنتها لم يكن لديها أدنى فكرة عن الاتجاه الذي أخطأت فيه. وبالرغم من أن هذه الحالة التي عرضت في مقدمة الرواية هي حالة شاذة، فإن كل الأمهات يواجهن ورطات مشابهة خلال تربيتهن لأولادهن. وكما رأينا من قبل فإنه ينسب اللوم والذنب للأم عند خطأ أطفالها. ما الخليط الصحيح للتواصل والتحكم؟ كم المقدار الكافي للاهتمام والرعاية والاستقلال والعاطفة الجسدية بين الأمهات والبنات؟ حتى في ثقافتها التي تعتمد على رأي

الخبراء ـ وخصوصًـا في ثقافتنا ـ فإنه ليس هناك إجابة. فإن أي مقدار من الممكن أن يحكم عليه بأنه مقدار كثير أو قليل، والحكم يأتي من قبل الخبراء والعائلة والأصدقاء والأبناء أنفسهم، بل وحتى من نفسها هي.

إن عنوان هذا الكتاب يتضمن سخرية، حيث أن عبارة «الأم» تلمح إلى أن العلاقة بين الأم والطفل، لكن في الحقيقة فإن الكتاب عن الأمهات والأطفال الذين أصبحوا راشدين. ومن الصفات الغريبة لهذه الوظيفة أنه في اللحظة التي يتم فيها تعيينك كأم فإنه من المستحيل طردك من الوظيفة. إنك ملتصقة بهذه الوظيفة لبقية حياتك، إن أحببت هذا أو لم تحبيه (بالرغم من أن الأكثرية تحبه). فسرت امرأة لديها ابنتان على أبواب منتصف العمر كيف أن هذا الجانب من الوظيفة قد فاجأها: «معظم الأمهات الصغيرات يعتقدن أن هناك وقتاً معيناً لوظيفة الأمومة. إننا نعتقد أنه في سن معين سينطلق الأولاد إلى الخارج. غالباً ما ضحكت أنا وصديقتي على هذا، لقد كان اعتقادًا ساذجًا بالفعل. إن علاقتك بأطفالك متشابكة لبقية الحياة». لكننا بقول هذا لا نعني أن أشكال هذا التواصل دائمة. وربما أن أصعب ما في هذه الوظيفة الغامرة استمراريتها بالتغير. مثلاً كتبت آنا كويندليل عن حزنها عند رؤيتها لولديها يتركان المنزل للجامعة وقد كانت على علم بأن الثالث سيلحقهما. لقد كانت حزينة بسبب عدم وجود الولدين في المنزل، وبسبب فقدانها للشخصية التي كانت عليها عندما كان الأولاد حولها. «قائدة الكتيبة ورئيسة المجلس». وبإقلاع أبنائها الكبار فإنه سيتم إنزال رتبتها ولم تعد تحتاج ساعات العمل التي كانت تعمل. ووصفت هذا بأنه «شعور بغيض». بالرغم من أن الأم لا تفقد عملها أبدًا، فإن مجالات عملها تتغير باستمرار. والتكيف مع هذه التغيرات هو تحدٍ مستمر في العلاقة المعقدة والأبدية بين الأم والبنت.